دراســـات
فى الأدب المصرى القديم
للآنسة الفاضلة الزهرة

إنّا سلالة أمة تباهى بتاريخها الأمم ، فمن الواجب علينا أن نلمّ بذلك التاريخ المجيد ، ونستعرض صوره ، لنمكن حلقة من تلك السلسلة الجميلة الغالية ، التى تصل بيننا وبين القدم ، وتقربنا إلى آبائنا الكرام ، أولئك الذين بنوا المجد وشادوه ، واستذلوا الزمان وأخضعوه ، وأكرهوه بباهر أعمالهم على أن يسجل أسماءهم فى ديوان الخالدين .

ولقد رأيت أن أستمدّ ذرائع الاتصال والقربى بالتغلغل فى قرارة الماضى السحيق ، للاحاطة بحياتهم الأدبية ، بحيث نستطيع أن نلمس فيها زمانهم وبيئتهم ، ونلمح قبساً من نظرياتهم فى الوجود ، وما اتخذوه لأنفسهم فيه من نظم الاجتماع والسياسة ، والدين والأخلاق ، لعلنا نتدرج من هذا كله إلى إقامة الدليل القاطع ، على سمو المنزلة التى بلغها الأدب المصرى القديم ، ودحض مارمى به من النقص والقصور . وقد كان علماء المستشرقين إلى منتصف القرن التاسع عشر يعتقدون أنه قد خلا من القصص وطول العبارة ، وانسجام التفكير واستمرار الخيال ، وافتقر إلى الفلسفة والنظريات . والواقع أن الأدب المصرى القديم كان حافلاً بالثروة المعنوية ، وأفانين القول ، وكان متعدد الفروع والأبواب حتى إنه لم يترك فرعاً إلا تناوله ، خلا فرع الشعر التمثيلى . ويرى الدارس للكتابات القديمة خصائص بارعة تميزها عن باقى آداب الشعوب السامية لما يتجلى فيها من حسن الوصف ، وكمال الصوغ ، وبساطة التعبير ، وطلاوة اللغة ومتانتها ، وسهولة الألفاظ ورقتها ، فى امتاع جزل بليغ . ولقد كان من أظهر تلك الميزات ، الوضوح والاستقامة ، وأناقة الأسلوب ، وروعة التركيب ، وجودة المقاطع ، ونصاعة المبنى ، وإيجاز المعنى وإصابته . على أن هذا الإيجاز كان ينتهى بالكاتب الضعيف فى أحايين إلى السخف والعى والركاكة . غير أن الكاتب الأريب ، كان يستطيع بقليل من التفنن أن يصور سجية من السجايا ، وضاءة الجبين إذ يصف عاطفة من العواطف ، قدسية الجوهر سافرة المحيا . ولم يكن للكاتب المصرى يد فى حسن اختيار الألفاظ ووضعها فى المكان الملائم لها فى الجملة ، فأنت تراه يكتب كؤلئى هذا العصر الجيدين دقة ورقة ومتانة وظرفاً ، وتمثل لك الحياة كما تقع فى صورة كلامية لا تقلّ تأثيراً وإبداعاً عن الصورة اللونية المتقنة ، فإذا نزل بك إلى ميدان السياسة ، تجده يصف لك الملوك والحكام وصفاً دقيقاً ، فيقول عن العاهل الجليل : « إنه يعرف كيف يأسر القلوب ويملكها » ويصف القاضى العادل بقوله : « إنه يسلك مناهج الاستقامة ونزاهة القلب » . وبألفاظ قليلة منتقاة كان يجلى لنا الحاكم المحبوب المترفق ، والقاضى الحكيم المنصف . وإذا عرّج على الحياة وألوانها ألفيناه يصف الشباب ولذاته ، والشيب وحسراته ، والهرم ومرارته ، كل ذلك بأسلوب سهل وإيجاز مبين ، لا أثر فيه للصناعة الأدبية المتكلفة فكان فنّه الفن الصحيح . وكان من مميزات هذا الأسلوب الموجز الممتع ، ما حملته ألفاظه من صور ومقدمات معنوية كانت فى الأدب المصرى القديم روح المجاز المرسل وعنصر الكتابة البليغة ، ويمكننا أن نقتبس أمثلة لذلك كقولهم : « المطيع يطاع ! » و « الجاهل حىّ ميت » وهكذا كانت الجملة القصيرة فى الأدب المصرى تفرغ فى مثل هذا القالب من البساطة وانسجام التفكير ودقة السبك . ومعلوم أن الجملة القصيرة الصحيحة تلخص فكرة العقل القوى الحصيف

كل الأمثلة التى قدمتها فى إجمال هذا الفصل تدخل فى الأدب ؛ ولكنها يمتاز بعضها عن بعض : فى القطع الأربع الأولى أدب ينشئه الشاعر إنشاء ويبتدئه ابتداء لا يصف فيه كلام غيره ، بل يصف ما رأى هو من مناظر ، وما شعر به من حزن وألم ونحو ذلك فهذا الذى يسمى الأدب الذاتى

وفى القطع الأخرى تجد أدباً يدور حول الكلام البليغ ، أدباً يصف أدباً آخر أو يبحث فى قوانين الأدب وأحواله وأطواره وهذا الذى يسمى الأدب الموضوعى

ولكن بعض هذا الأدب الموضوعى يبين محاسن القطعة من الشعر أو النثر أو يبين أحسن المناهج التى يسلكها الشاعر أو الكاتب ، كما فى قطعة القاضى الجرجانى وقطعة بشر ابن المعتمر وقطعة الناشئ وهذا يسمى النقد .

وبعض الأدب الموضوعى يبين التاريخ والتطور كما فى قطعة ابن قتيبة ، وهذا تاريخ الأدب .

وفى العدد الآتى نجمل الكلام فى النقد وتاريخ الأدب .

عبد الوهاب عزام

لأن الإيجاز فى الإفهام ممدوح مستحبّ . ولقد كان الأسلاف يكرهون الإسهاب المخلّ ، والإطناب المملّ ، فتراهم يجنحون دائماً إلى قرب المجتنى ، ويعتقدون أن خير الكلام ما قلّ وجلّ ، ودلّ ولم يملّ . وكانوا فى حياتهم اليومية يشمئزون من الثرثار ويعدون الثرثرة مما ينافى عقيدتهم الدينية فى أشرف المواهب ، واعتاد من يقف منهم فى محكمة العدل والديانة ، أمام قضاة « العالم السفلى » فى دار الآخرة أن يقول : « أشهد أنى لم أكثر من الكلام فى حياتى ولم أسترسل فيه بإطناب تمجه الآذان» وكانوا يحبون تنميق اللفظ وزخرفته ولكنهم أجادوا تنقيحه ووفقوا فيه توفيقاً عجيباً دون أن يداخله التعمل . وكذلك كانوا لا يطاولون فى دقة التشبيه . والحق أنهم كانوا يرتفعون إلى أجل سماواتها وأعلاها كلما التمسوها من الطبيعة . وبيّن أن التفوق فى تقريب المثال، دليل القدرة على بُعد المنال، والتعميم والإطلاق فى رسم الحقائق الناصعة رسماً صادقاً ، وعنوان البراعة فى الموازنة العقلية والمقارنة الذهنية ، بل إنه مجلى الحماسة والحرارة والإخلاص للفنّ ومعرض العاطفة العميقة الصحيحة التى تفتن الألباب بصحتها وقوتها. مثال ذلك تشبيه الملك رمسيس الثانى « بأسد ظافر يضرب بمخلبه ولايدبر ، يزأر ويزمجر بصوت هائل فى وادى الظباء. . . » أو قولهم فيه : «إنه يشبه ابن آوى فى سرعة خطاه وسعيه لاقتناص ما يجده والانقضاض عليه كالبرق الخاطف»

وكانت التعبيرات التجانية الوعرة ، والكلمات الغثة المثقلة بالاستعارات الرثة والتوريات المتنافرة ، والمترادفات المتقعرة الفجة والمحسنات اللفظية الجوفاء من الأخطاء التى يجهلها المؤلف المصرى الذى كان يميل فى أسلوبه ولغته إلى الوضوح دون أن يتسامح فى لفظة واحدة تطن بلا معنى وبلا غرض ... وكان آية فى الجلاء والاحكام حين يروى حديثاً أو يدون حادثاً . ولعل ذلك راجع إلى سلامة طبعه ، واستقامة خلقه ، وتمسكه بالصدق ، ومقته للمبالغة والغلو ، ولم تكن تآليفه صادرة بحال من الأحوال عن انحطاط فى التخيل ، أو قصور فى التصور ، أو عجز عن عمق التفكير ، لأننا حين نطالع سيرة عظيم من العظماء من خلال منظار الحقيقة ، ثم نعمد إلى قراءة الشخصيات البارزة فى أقاصيص أولئك المؤلفين ومن جعلوا أبطالاً لها كما ابتكرتها تصوراتهم الخصبة واخترعتها عبقريتهم المبدعة ، نرى تخيلاً سامياً معتدلاً رصيناً ، يحدوه العقل الراجح ، ليطابق الواقع المعقول ، ويمنح تلك الشخصيات سحنة جميلة ، تدب فيها الحياة الناشطة ، فتراها متجسدة حيالنا ، لا أشباحاً سميكة لا كيان لها ولا جسم ...

وفى هذا العالم الأدبى العجيب ، الذى كان يعنى بالأنواع والنماذج التى يكثر أشباهها فى الحياة اليومية ، نرى مواطن الشبه الموجودة بين كل فروع الأدب القصصى المصرى القديم ، وبين القصص التى يتحفنا بها المؤلفون المجيدون فى القرن العشرين من أتباع المذهب الواقعىّ . ونزداد إيماناً بأن عقول أهل الأجيال السالفة لم تكن دون عقول أبناء العصور الحديثة . هذا ولعلنا واجدون فى قصة « سانيهات » — ابن الجميزة — صورة أمينة واضحة للحياة والعادات القديمة . ولا يبعد أن هذا الاسم قد أطلق على بطل القصة لكونه عاش حيث توجد شجرة من أشجار الجميز المقدسة التى اشتهرت بها مصر منذ القدم ، ولا سيما أن الاسم « سانيهات » معناه « ابن الجميزة » ونحن نرى فى موضوع القصة ما كتبه سانيهات هذا عما شاهده فى مغامراته أثناء تنقلاته ورحلاته فى جنوب شرق فلسطين . وإنى كمصرية يسرنى أن أذكر بلسان الاعظام والاكبار ، هذا الدليل الذى تقيمه القصة على أن المصريين قد سبقوا ماركوبولو وكولمبس وفاسكودى جاما وماجلان وغيرهم من كبار المستكشفين إلى ارتياد المجاهل ، وأنهم قد كتبوا قصص هذا الارتياد بيد أجادت نقل ما انطبع فى الذهن من صور المرئيات والحوادث بخاصة عجيبة وقوة انتباه فائقة . وقد وصف سانيهات هذه الأصقاع التى رآها وصفاً بارعاً ، ورسم الحياة الاجتماعية لسكانها ، ومثّل أخلاقهم وعاداتهم ونزعاتهم وميولهم أكمل تمثيل وأظهر بعد عودته إلى مصر ، الفرق العظيم بين حضارة بلاده والحياة البدائية الخشنة التى كان يحياها أولئك القوم ... وسانيهات هو هذا « الأمير الملكى وحامل خاتم الملك ، والصديق المخلص ، وأمين شؤون الأجانب ، والمحبوب الملكى التابع للمقام الأسمى » وقد فرّ من مصر حالما سمع بوفاة الملك أمينمعهت الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، أى قبل الميلاد بألفى سنة. وهو لا يحدثنا فى القصة عن هروبه ، ولكننا نرجح أنه هرب لأنه كان أحد أبناء الملك من أم لا يجرى فى عروقها دم الفراعنة ولذلك لا يقدر أن يرث عرش أبيه وإلى جانبه « أوسرتسن » الابن « الملكى للفرعون » فهو يخشى أن يقتله الفرعون الجديد حتى لا يكون له من ينازعه العرش وينافسه فيه ، ويشجعنا على التمسك بهذا التعليل ما جاء فى سياق القصة ، من اللجج بالإكرام الذى صادفه سانيهات من أفراد البيت المالك عند أوبته من ديار الغربة . ومعلوم أن الفراعنة كانوا شديدى التمسك بعصبيتهم ، عظيمى التعلق بأقاربهم

فلا يقربون منهم غير كريم النسبة ...

نعود إلى حديثنا الأول فنقول: إن سانيهات يذكر أنه ولى هارباً من مصر فى الليل، وكان «يختبئ فى الأدغال نهاراً لئلا يراه أحد من الجيش المرابط على الحدود» وبعد صعوبات جمة ومخاطر عدة وصل إلى سلسلة الحصون التى أقيمت لصد غارات الأعداء على الحدود، وجاوزها فى دياجير الظلام، وأنه حين شارف «البحيرات المرة» خارت قوته «وشعر بظمأ شديد، وجف ريقه، وضاقت أنفاسه» فقال فى نفسه: هذا نذير الموت. ولكن ثناء الماشية كان يتطرق إلى سمعه فينعشه وينفخ فيه روح القوة ويطمئنه فيواصل سيره إلى أن يصادفه زعيم إحدى القبائل، فيعطيه «ماء ولبناً مغليا» ويخبرنا بعد ذلك أن كل قبيلة من القبائل العائشة فى تلك الأقاليم كانت تكرم مثواه وتستضيفه بدورها، حتى حط رحاله فى أرض «أيدوم» حيث أقام سنة ونصف سنة، وأن أمير «تنو» التى زرتها منذ أعوام فى جنوب شرق فلسطين وتقع بين الخليل وبيت جبرين، قد أرسل إليه ودعاه إلى الإقامة عنده. ويحسن بى أن أنقل هنا ما ذكره سانيهات من حسن معاملة ذلك الأمير بقوله: «ومنحنى اختيار ما أريده من الأرض حتى تلك الأرض التى كان يملكها فى الخارج وهى أرض حسنة. والحق يقال أن ما أعطانيه كان عظيما، وقد قدمنى على أولاده وزوجنى من كبرى بناته وأقامنى أميراً على قبيلة من خيرة قبائل أرضه». ثم يحدثنا عن إغاراته على القبائل الأخرى ويقدم لنا وصفاً فريداً عن قيامه بمنازلة أحد أبطال تنو. والظاهر أنه كان محسوداً على المكانة التى كانت له فى قلب الأميرة العظيمة، وعلى ما أحرزه من مجد الشهرة وفخر الانتصار، فجاء ذلك البطل ذات يوم ودعاه إلى النزال، «رجلاً قوياً لا أخ له فى القوة»، وقد «أخضع لجبروته وكان: كل إنسان». وقال: «فلينازلنى سانيهات»، وكان يريد أن يقتله، ولكن بطل تنو تضاءل أمام المصرى الخبير بفنون القتال والقائل فى ذلك: «وجاء الموعد فالتقينا وناديته أن يبدأ فصوّب سهامه ولكنى تحاشيتها كلها، وسقطت بقربى سهماً إثر سهم. وهنا فوّقت نحوه قوسى وأطلقت السهم. فنفذ إلى عنقه فصاح من شدة الألم وخرّ على أنفه فأخذت قناته وأنفذتها فى جسمه، ووضعت قدمى على ظهره فهلل البدو، واستحوذت على جميع مقتنياته وماشيته. الشىء الذى كان يريد أن يفعله بى فعلته أنا به»

وأظننى بعد هذا كله لست فى حاجة إلى الإشارة إلى أن الآداب القصصية العالمية لم تمنح أية أمة فى الوجود ما منحت الأسلاف من التفوق فى القصص الخيالية الممتعة التى يعدها العلماء الشتغلون بالمصريات فى الوقت الحاضر غاية فى سمو التصور ودقة التفكير وسعة التصوير وخصوبة الخيال وسلامة اللغة وسلاسة الأسلوب. ولعل أبدعها «قصة السحرة» التى جمعت ورتبت على طريقة كتاب «ألف ليلة وليلة». فهى فى الحقيقة قصة واحدة طويلة. تضم ثلاث أقاصيص متتابعة، أدخل المؤلف كل واحدة منها فى التى تليها، وقد عارض سير القصة عينها عند نهاية الجزء الأول منها بشىء جديد، لأنه رأى كما يرى كتاب العصر الحديث فى قصصهم ضرورة وقوف القارئ عليه قبل الخاتمة، وهى مهارة أرادها فوفق فيها رغم ما تفيض به سطورها من تحول ساذج معجب لا ترون مثاله فى غالبية ما يكتبه كتّاب اليوم من الفرنج وغيرهم! وهذه القصة البديعة أشهر من أن تعرّف. إلا أن السبيل إلى تلخيصها الآن غير ميسور، ولا يسمح المقام باقتباس شىء مما حفلت به تصانيف الأسلاف من الحكم الخالدة والمواعظ الأبدية والأمثلة العالية والكتب السياسية التى تبودلت بين الفراعنة وملوك الشعوب الأخرى من معاصريهم والرسائل التبادلة بين الإخوان والأصدقاء وأغانى الحب والتسابيح الدينية، والأناشيد الغنائية والأشعار القصصية الطويلة التى أتوا فيها على ما سعد به ملوكهم من جلال الانتصارات وعز الفتوحات. بيد أنه لا يسعنى إلا أن ألمع فى إيجاز إلى كتاب «المحاورة بين مصرى ونفسه» تلك المحاورة التى يزخر فيها كل ما يزخر فى الحياة النابضة من قوة دافقة، وتمثل صراع الروح والجسد، وأزمات الوجدان الطاحنة، وفورات العواطف المتأججة، وهجمات الضمائر، فى مهاوى ضعفها ودركات فورها، أو درجات مجدها وذروات قوتها

وهناك ثلاثة كتب جديرة بالعناية أولها كتاب «بتاهوتب» وهو أقدم كتاب فى الدنيا كما يقول المؤرخون. وفى هذا الكتاب فصول ممتعة، فأنتم ترون مؤلفها حين يعرض لذكر المرأة يكتب عنها كمؤلفى القرن العشرين — حفاوة وإجلالاً وإكباراً —

أما الكتاب الثانى فهو «حكم الكاتب آنى» ولست أريد أن أطيل الوقوف عند هذا الكتاب وإنما أريد أن أذكر منه نبذة واحدة نصح فيها المؤلف الولد برعاية أمه فقال: «ضاعف الطعام والشراب اللذين تقدمهما لأمك فهى التى تعبت فى تربيتك ووجودك